

اللغة والدين والتقاليد

في حياة الاستقلال



بقلم

زكي مبارك

دكتور في الآداب من الجامعة المصرية ومن جامعة باريس
وحائز دبلوم الدراسات العليا في الآداب
من مدرسة اللغات الشرقية في باريس



obeykandi.com

الأهداء

الى فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى
أهدى هذه الصنائف ، تحيةً من رجل يضمّر له
أصدق الودّ ، ويعرف فضله فى إعزاز اللغة والدين ومحمود
التقاليد .

المخلص

محمد زكى عبد السلام مبارك

obeykandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على جميع

الأنبياء والمرسلين

أما بعد فهذا بحثٌ أدّرتُ معانيه في ذهني أسبوعين ،

ثم كتبتُه في شهرتين . وأنا أقدمه الى الجمهور قبل أن أقدمه

الى لجنة التحكيم فى المباراة الأدبية ، أقدمه سَمِجًا سهلاً

كما فاض به الطبع بلا تَوْشِيَةٍ ولا تنميق

ولم يكن كل هـى حين أنشأته أن أظفر بالجائزة الأولى

وهي مَرصَمَةٌ بمئة دينار تعود على مثلى بأجزل النفع - وانما

كان أكبر هـى أن تصل بعض آرائى الى آذان قومى ، وهذا

مَنْعَمٌ ليس بالقليل

وإني أعتذر عما اضطنعت من الإيجاز ، فقد ضاق
الوقت ، وصرفتني الشواغل عما كنت أريد من الاطّاب
وجهة المقلّ غير قليل

زكي مبارك

مصر الجديدة في ١٢ المحرم سنة ١٣٥٥
٤ : ابريل سنة ١٩٣٦

اللغة والميعة والعادات

باعتبارها من مقومات الاستقلال

— ١ —

الدين واللغة والعادات من الظواهر التي يتصل بعضها ببعض أشد اتصال . ومن المؤكد أن اللغة تخضع في بعض ألوانها للدين والعادات ، وقد يكون في صورها القديمة ما يؤثر في الدين والتقاليد . وهذه الظواهر الثلاثة تبدو مختلفة بعض الاختلاف ، ولكنها عند التأمل ترجع الى أصل واحد هو التعبير عن الخلائق الأدبية : فاللغة مظهر من مظاهر الأناقة والدقة في الإفصاح ، والدين صورة العقيدة التي يحيا بها الناس ، والعادات مظاهر لما تأصل من كريم الشئائل والخلال

فالإنسان المهذب تقوم حياته الأدبية على لسان فصيح

ودين حق ، وعادات كريمة تصل بينه وبين الأقربين من
إخوانه في الوطنية ، وقد تسمو فتصل بينه وبين الأبعدين
من اخوانه في الانسانية

ونريد في هذا البحث أن نخص كل عنصر من هذه
العناصر الثلاثة بشئ من البيان فنقول :

اللغة في ذاتها شخصية استقلالية ، فالذى يعبر بلغته
يشعر بالقوة وتنطبع نفسه على حب الكرامة والاستقلال
ويزيد هذا المعنى وضوحاً ما نشعر به حين نضطرب ونحن في
بلادنا الى التفاهم مع بعض الأجانب بغير العربية فاننا حين
ذاك نشعر بالتخلف ، ونوقن بأن سلطاننا في العالم سلطان
ضعيف ، فقد يجيء الأجنبي الى مصر ثم تمضى عليه الشهور
والأعوام بدون أن تقهره الظروف على تعلم العربية ،
ويكون معنى ذلك أن مصر ليست ملكاً خالصاً للمصريين

فإن الرجل لا يستطيع أن يتخذ باريس أو لندن أو برلين
مُقاماً بدون أن يتعلم العربية ، لأن في القاهرة عصبية
أجنبية لها مدارس ومكاتب وجراند ومسارح ومنتديات ،
ويستطيع الفرنسي أو الأنجليزى أن يعيش فيها سنين عدداً
وهو لا يتكلم غير الفرنسية أو الإنجليزية ، وهو يستطيع
بقوته الاستقلالية أن يقهر المصريين على مخاطبته بلغته
الأصلية ، ثم لا يستطيعون هم أن يقهروه على مخاطبتهم
باللغة العربية

أليس هذا من ألصع الدلائل على أن اللغة في ذاتها
شخصية استقلالية ؟

لقد كنت آسى كلما تذكرت تقصيرى في تعلم
الإنجليزية ، ثم صرت ظروف حمدت فيها ذلك الجهل ، لأنه
على قبحه كان عنواناً على الشخصية الاستقلالية . وتفصيل
ذلك أنى أقمت عدداً من السنين في باريس ، وكنت ألقى

فيها ناساً من النمساويين والبولونيين والهنولنديين والألمان
فكان يتفق أحياناً أن يجرى ذكر اللغة الإنجليزية فكنت
أعلن أنني أجهلها كل الجهل ، فكانوا يقولون : وكيف
يصح ذلك ومصر في قبضة الإنجليز ؟ فكنت أجيب :
إنكم واهمون ، إن مصر ليست في قبضة الإنجليز وإنما هي
ملك لأبنائها الصناديد ، واللغة الإنجليزية في مصر لغة
أجنبية يرغب فيها من يشاء ، وآية ذلك أنني أحمل
أكبر الألقاب العامة ، بدون أن أتعلم الإنجليزية

ومن أعراض الشخصية الاستقلالية في مصر ما نشهده
في المصالح والدواوين من كتابة أسماء الغرف والحجرات
بلغة دخيلة تراجم اللغة القومية بلا تخرج ولا استحياء ،
فإن تلك الكلمات تشعرنا دائماً بأن لنا في الوطن شركاء ،
وأن لعتنا لا تملك السيطرة والاستقلال ، وقد اتفق أن

رأيت في بعض قطارات فرنسا كلمات انجليزية بجانب
الكلمات الفرنسية فدهشت ، ثم سألت عن السر في ذلك
فعرفت أنه لم يقع تلطفا مع الانجليز ، وانما وقع تألفاً
للسائحين من الأمريكان ، وهو لم يقع إلا في القطارات التي
تسيرها الشركات ، أما قطارات الدولة فهي كمصالح الدولة
لا تكتب فيها كلمة أجنبية على الإطلاق

— ٤ —

قد يقال : وأين نحن من فرنسا ؟ ونجيب بأن فكرة
الاستقلال خليفة بأن توحى إلينا التشبه بكرام المستقلين ،
والذي عرض هذا الموضوع للمباراة لم ينس أن يشير إلى أن
الكاتب « مطلق الحرية فيما يبدى من آراء ومقترحات »
وأخشى أن أخون الواجب إن قصرت في تذكير الحكومة
بواجبها في الاكتفاء بالكلمات العربية في جميع المصالح
والدواوين ، ولست أزهد في إرشاد من يفد على دور

الحكومة من الأجانب فأضن عليهم ببعض ما يعرفون
من الكلمات ، لا ، وإنما هي مسألة قومية لا يُفَرِّط فيها
إلا من يستهين بما اصطلاح عليه الناس من شارات
الاستقلال

ولنفرض أننا نكتب أسماء الغرف والحجرات بكلمات
أجنبية لترشد الأجانب ، فكيف يجوز أن نفترض أن
الأجانب لا يكونون إلا من الأنجليز ؟ إن في الدنيا أمماً
كثيرة شرقية وغربية ، ولمصر مع الشرق والغرب صلات
فكيف صح عندنا أن الأنجليز هم وحدهم الجاهلون باللغة
العربية ، وأنهم الخلقون بالعطف والاشفاق ؟

ومن المحزن أن هذه البدعة السيئة انتشرت في جميع
المدن المصرية ، حتى حيّ الأزهر الشريف ، فأمام مسجد
الحسين بائع (فول مدمس) زين واجهة المطعم بكلمات
انجليزية

أ تكون الصراحة التي دعانا إليها رئيس الحكومة
فرصة لتذكير أولئك الغافلين بأنهم يجرحون القومية
ويؤذون الاستقلال

قلم إن التفضيل في المباراة سيكون « للرسالة العملية
النتائج » فأسرعوا غير مأمورين بدعوة الموظفين والجمهور
إلى احترام اللغة العربية احتراماً يجعلها بلا مزاحم ولا شريك
في المصالح والمتاجر والدواوين ، ابدأوا أنتم باحترام اللغة
في جميع دور الحكومة وسترون كيف يتبعكم سائر الناس

اللغة من مقومات الاستقلال ؟

كذلك يقول صاحب الدولة رئيس الوزراء

إذن ما رأيكم في لغة التعليم ؟

إن التعليم عند المستقلين يجب أن يكون باللغة القومية
لغة الآباء والأجداد ، ومن العسير أن نجد في الدنيا أمة

مستقلة تصطنع في التعليم لغة أجنبية

أما مصر العزيزة فقد قسمت إلى مناطق ، منطقة
ضعيفة تسود فيها اللغة العربية وهي المدارس الابتدائية
والثانوية ، ومنطقة قوية تسود فيها اللغة الفرنسية وهي
كلية الآداب وكلية الحقوق ، ومنطقة أقوى تسود فيها
اللغة الإنجليزية ، وهي كليات الطب والهندسة والعلوم
ومناصب التعليم في المدارس العالية أكثرها الجانب
وهي بلية لا تصبر عليها أمة تسمو إلى كرامة الاستقلال
إن الأمم الحرة لا تعطى مناصب التعليم غير أبنائها ،
واللغات الأجنبية ذاتها لا يُدرّسها الأجانب وإنما يُدرّسها
الوطنيون ، ففي فرنسا مثلاً أساتذة اللغات الأجنبية كلهم
فرنسيون . ومن أجل هذا تملك فرنسا طائفة كبيرة من
النوابغ في اللغات الأجنبية ، أما في مصر فيندر أن تجد من
يتفوق في لغة أجنبية ، لأننا نتعلم اللغات لغاية محدودة هي

الاستفادة من المؤلفات ، ولو كان لنا مستقبل في تعليم اللغات الأجنبية لتبدل الحال غير الحال ، وشعر شبابنا بأن لهم مصالح يخلقها التفوق في اللغات ، وكان ذلك حجراً في بناء الاستقلال

لا أريد أن يجرفني الاستطراد ، فلا أرجع مسرعاً إلى ما كنت فيه ، وأنا أقرر أن لغة التعليم في كليات الجامعة المصرية يجب أن تكون العربية ، وأقول بصراحة : إن اللغة الانجليزية لم تسد في كليات الطب والهندسة والعلوم لسبب معقول ، إنهم يزعمون أن اللغة العربية تعوزها المصطلحات العلمية ، وهذا وهم ، أو هو عجز يُستتر بهذا الوهم المصنوع ، فالمصطلحات العلمية لم تكن مما تفردت به الانجليزية أو الفرنسية ، وإنما هي ألفاظ نُحِيتْ نَحْتاً من اليونانية واللاتينية ، وفي مقدورنا أن نأخذها كما أخذوها بعد أن نصقلها صقل التعريب فتضاف إلى اللغة القومية

وتعليم العلوم باللغة البلاد يخلق فينا قوى جديدة ،
ويدفعنا إلى الترجمة والتأليف ، ويرفع عنا إصر الكسل
المخجل الذي يتمتع به أساتذة الكليات ، وهو كذلك يرفع
عنا هذه الوصمة البشعة ، وصمة الفقر في المكتبات ، ففي
الممالك المستقلة يرى الانسان في الأحياء الجامعية مكتبة
خاصة بالطب ، ومكتبة خاصة بالعلوم ، ومكتبة خاصة
بالفلسفة ، ومكتبة خاصة بالطيران ، وهكذا دواليك ، أما
في مصر فلا يجرؤ أحد من الناشرين على إنشاء مكتبة خاصة
بعلم من العلوم ، وإنما تتجمع العلوم والآداب والفنون
والمحكايات في مكتبة واحدة تلتقى فيها قصة القط والفأر
بكتاب أرسطو في الأخلاق

إن فقر مصر في الترجمة والتأليف يقع وزره على رجال
الجامعة المصرية ، فلو سلكوا مسلك الحزم والجد وتذكروا

أنهم يعيشون في بلاد كان وطن المعارف والعلوم لأقرباؤها على
لغتهم فاصطفوها وجعلوها لغة التعليم ، وأمددوها بكل
طارف وتليد ، وتسامت هممتهم إلى جعلها لغة الشرق
فعاشوا بفضلها سادة أعزاء

وفي مقدور سعادة مدير الجامعة أن يشير بهذه التجربة
في حزم وجد ، وما أظنه يخشى الإخفاق ، لأن اللغة
العربية لها ماض مجيد في الحياة العلمية والطبية ، ومن
السهل رجمها إلى مجدها القديم ، ونحن لا تعجزنا الأصول
وإنما تعجزنا الهمم العاتية التي تخلق المالك والشعوب ،
وليس من الكثير أن نشق عشرين في سبيل تجربة
شريفة نحفظ بها ذكرانا نقيه بيضاء على وجه التاريخ

أقدم ، يا مدير الجامعة المصرية ، على هذه التجربة ،
لتحول أساتذة الكليات إلى طلاب جادين يشعرون بالعزة

كلما تذكروا أنهم يحمون الأحجار لوضع أساس
الاستقلال

إن مصر حين تُعلم العالم باللغة العربية ستفتح أسواقا
جديدة هي أشرف الأسواق ، وحسبكم أن تتذكروا أن
مصر ستصبح بحق زعيمة الشرق ، وستكون مؤلفاتها
عمدة الباحثين في المشرقين ، فيتغنى بذكرها أهل المغرب
والشام والحجاز واليمن والعراق
أتحسبون أن من القليل أن يكون في الخارج مكاتب
خاصة بالثقافة المصرية ؟

إن من مجد فرنسا وإنجلترا أن يرى الانسان في مثل
القاهرة مكاتب فرنسية وإنجليزية ، وتلك من أظهر علامات
السيطرة الأدبية عند من يتمتعون بنعمة الاستقلال

إن اللغة العربية من أكبر لغات الشرق ، ومصر في

هذا الزمان على رأس الحركة العامية في الشرق ، ولا ينقصها
إلا أن تجعل العربية لغة التعليم في جميع المماهد ، فتقهر
الأساتذة على الترجمة والتأليف ، وتسوقهم سوقا إلى
اجتذاب الأمم الشرقية باسم الأدب الحق ، أدب الفكرة
والمنطق والفن الجميل

كيف ندّعى شرف الاستقلال وليس عندنا مُعْجَمٌ
واحد يسجّل تطور اللغة في العصر الحديث ؟
كيف ندّعى شرف الاستقلال وليس عندنا مكتبة
طبية أو عامية باللغة العربية ؟

كيف ندّعى شرف الاستقلال وآثار مصر نفسها
لم يُنشر عنها كتاب وافٍ باللغة العربية ؟

كيف ندّعى شرف الاستقلال وليس عندنا كتاب
في القانون خَلَّتْ صفحةً من صفحاته من سطرين أو ثلاثة
بلغة أجنبية ؟

كيف ندّعى شرف الاستقلال ولا يستطيع رجل
من علمائنا أن يكتفى في أى بحث بالمصادر العربية ؟

كيف ندّعى شرف الاستقلال وليس عندنا وزير
واحد خلت بطاقته من الكلمات الأجنبية ؟

كيف ندّعى شرف الاستقلال والمطبوعات الأجنبية
هى أكبر محصول فى دار الكتب ومكتبة الجامعة
المصرية ؟

كيف ندّعى شرف الاستقلال وفى القاهرة
والاسكندرية مناطق لا تباع فيها غير الجرائد الأجنبية ؟
كيف ندّعى شرف الاستقلال وفى الدواوين أقلام
لا تدوّن ملفاتها بغير الانجليزية ؟

كيف ندّعى شرف الاستقلال ولقننا منسية فى
معاهدنا ومدارسنا ومكاتبنا؟ وأخشى أن أقول انها منسية فى
دور الوزراء والأمراء وأكثر المتحذلقين من أبناء الزمان ؟

إن مدير الجامعة مسئول أمام الوطن وأمام التاريخ
عن هذا البلاء ، وفي يده أن يكشف هذه الغمة وأن
يجعل لغة البلاد لغة الدرس والتأليف في جميع الكليات ،
نعم يستطيع الأستاذ الجليل أحمد لطفي السيد باشا أن يجمع
أبناءه المخلصين من أساتذة الجامعة المصرية ويفرض عليهم
اصطناع اللغة العربية في جميع المواد ، وعلى الضعيف أو
المتخلف أن يستقيل ، فإن مصر تعاني أزمة تقضى المضاجع
لأنها مستقلة رسمياً ، ولكنها محرومة من أشرف مظاهر
الاستقلال

أريد أن أعرف ما الذي يقهرنا على هذه التبعية العامة
للإنجليز والفرنسيين ؟

إن اللغة الفرنسية ليس لها إلا سلطان ضئيل في كلية
الحقوق وكلية الآداب ، أما اللغة الإنجليزية فتطغى
وتستطيل في كليات الطب والهندسة والعلوم ، وما أذكر

أن هذا الطغيان كان من التحفظات المشهورة في التاريخ
لنا عذر واحد : هو الكسل المعسول الذي ينعم به
الخامدون

ولكن هل يعجز مدير الجامعة عن استئصال هذا
الداء ؟

إن الوطن ينتظر منه هذه اللفتة : لفتة الوالد الحازم
الذي يخشى على بنيهِ من انهزام العزائم وانحلال الطباع

— ٨ —

ان اللغة من مقومات الاستقلال ؟

كذلك يقول دولة رئيس الوزراء

وهذا والله صحيح ، ألم تروا كيف يحرص الفاصيون

على نشر لغاتهم ؟ إن فرنسا في مستعمراتها تنشر اللغة

الفرنسية ، وانجلترا في مستعمراتها تنشر اللغة الانجليزية ،

وايطاليا في مستعمراتها تنشر اللغة الإيطالية

فإذا كان الفاصبون يرون نشر لغاتهم من مؤيدات
الاحتلال ، أفلا يرى الوطنيون نشر لغتهم من مؤيدات
الاستقلال ؟

رحمة الله على ألفونس دوديه ، فماتد كرت كلمته عن
« الدرس الأخير » في (الأساس) الأثارت نفسي ،
وتجدد إيماني بأن حفظ اللغة هو الأساس في حفظ
الاستقلال ، ونحن خليقون بأن نأخذ الدرس من غاصبينا ،
لأنهم أساتذة في علم النفس ، واليهـم المرجع في تصريف
الشعوب

اللغة كما قلت لكم شخصية استقلالية ، وهى وحدها
من أهم مظاهر الاستقلال ، فمَضُوا عليها بالنواجذ إن
كنتم تعقلون

وما أحب أن تضع هذه الفرصة بدون أن أذكر

سعادة مدير الجامعة المصرية بمسألة خطيرة تمس الاستقلال
وتلك هي مسألة الرسائل التي تقدم لنيل الدرجات الجامعية
ان الرسائل التي تُقدَّم لامتحان الدبلوم والدكتوراه
يجب دائماً أن تكون باللغة القومية ، ففي جامعة باريس
مثلاً لا تُقبَلُ الرسالة الأساسية بغير اللغة الفرنسية ، ولو
كانت في موضوع يتصل بأحدى اللغات الأجنبية

أما في مصر فالأمر بالعكس ، تقدم الرسالة الى الجامعة
المصرية بأي لغة أجنبية بدون اعتراض ، ولو كانت في
صميم الآداب العربية ، أو الشريعة الإسلامية ، وهي حين
تُقدَّم بالعربية يجب أن تكون مصحوبة بخلاصة فرنسية
أو انجليزية ، ولو كان أعضاء الامتحان جميعاً مصريين

وقد قاومت هذه البدعة مرات كثيرة في جريدة
البلاغ ، لأن كلية الحقوق جرت في تقاليد الامتحانات
العالية على إشار تقديم الرسائل بلغة أجنبية ، واتفق لها مرة

أَنْ قَبِلْتُ رِسَالَةَ كُتِبَتْ بِاللُّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ عَنِ الدِّيَّةِ فِي
الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

تذكروا أنكم دعوتونا الى تقديم ما نشاء من الآراء
والمقترحات ، فان كنتم جادّين فيما دعوتكم فنحن جادّون فيما
نقترح ، ونحن نرى تقديم الرسائل الى الجامعة بلغات
أجنبية يناهى الحرص على مقوّمات الاستقلال

قد تقولون انكم تريدون التعرف الى الجامعات الأجنبية
ونحن نقول إن لهذا التعرف وسائل كثيرة، فاختاروا منها
ما شئتم ، إلا هذه الوسيلة التي تعلن تبعيتكم لثقافة الانجليز
أو الفرنسيين

أنا أدعو الى تعديل هذه الفقرة من لوائح الجامعة
المصرية ، وأوصي بجعل اللغة العربية لغة الرسائل الهامة
والأدبية والتشريعية التي تقدم لنيل الدرجات الجامعية

أترون في هذا الاقتراح شيئاً من الشطط ؟

إن سعادة مدير الجامعة يعرف أنى على حق ، وإلى
رأيه الموفق أكمل تحقيق هذا الاقتراح النبيل

ولكن ، أهى اللغة التى تعدُّ من مقومات الاستقلال ؟
أهى اللغة المخدّرة التى لا ترى الشمس ولا يعرفها
غير عشاقها المعدودين من كبار الكتاب ؟ أهى تلك اللغة
الهيّوب التى تتعشّر فى كل حرف ، وتسقط فى كل فقرة ،
ويختلف من حولها العلماء فى الصباح والمساء !

اننا نريد « لغة من لغات المدينة » نريد لغة يفهمها
الفلاح والملاح والنجار والبناء ، نريد لغة سخية تسعد
أبناءها جميعاً بغير حساب ، نريد لغة تجمع بين التواضع
والجبروت ، يرى فيها العوام ما يشاءون من البساطة والجمال
ويرى فيها الخواص ما يريدون من سمو والتحليق ، نريد
لغة مبدولة على نحو ما يبذل الضوء والهواء ، يأخذ منها

كل إنسان ما يناسب عينيه ورئتيه ، وأنا بهذا أدعو الى الديموقراطية اللغوية ، أدعو الى تيسير اللغة تيسيراً يُقرَّبها من جميع القارئین والسامعين ، أدعو الى التقصد في احترام الألفاظ القاموسية ، وأشير باحترام ما اصطلح عليه الناس من الألفاظ في مختلف الفنون

ولن تكون اللغة العربية (لغة مدنيّة) إلا يوم تصبح أداة التفاهم بين جميع الطبقات ، ويوم تحترم جميع الألفاظ الاصطلاحية، وترفع تلك الهيبة السخيفة التي يعانها كل تلميذ يكلف موضوع إنشاء

وأنا أقترح أن يتصل المؤلفون بالقراء على نحو ما يتصل الأساتذة بالطلاب ، فإن ذلك ينفع أجزل النفع في تعريف المؤلفين بما يأخذون وما يدعون ، فقد رأيت العجب في حياة التدريس ، وعلمت علم اليقين أن التلاميذ يتهيبون اللغة ويذهبون ضحية الحذقة التي يامسون آثارها

فيما يقرأون وما يسمعون

لقد كنت أجد من بين تلاميذى من يدنو منى فى
درس الانشاء ويهمس : يا استاذ ، هل يصح أن أقول
« مشيت وحدى »

نعم ، يابنى ، تستطيع أن تمشى وحدك بلا معين
و كنت أجد من يقول : يا أستاذ : هل (خرجت)
كلمة فصيحة ؟

نريد أن يقبل الأساتذة والمؤلفون على التلاميذ
والقراء فيفهموهم أن الأفصاح أيسر مما يظنون ، نريد أن
يفهم الجمهور أن الأفصاح ليس وقفاً على المتحذلقين من
أساتذة الأزهر ودار العلوم وكلية الآداب

وأنا مع هذا أو من بأن فى كل لغة نوعاً من
الارستوقراطية الأدبية ، ولكنى أنكر أن تكون لغتنا
فى كل مناحيها لغة أرستوقراطية لا يفهمها حق الفهم غير
الخواص

أذهبوا إن شئتم الى مدينة مثل باريس ، وانظروا
كيف تنشر على الجماهير بعض الفقرات من خطب الوزراء.
رحمة الله على تلك الليالي حين كنت أنظر أقوال هريو
ودلاديه منشورة بأحرف من نور في أكثر الميادين ،
وهي في بساطة تذكر بتعابير الأطفال

اقرأوا إن شئتم مؤلفات أناتول فرانس : ذلك
الكاتب الفحل الذي حوّل الفرنسية الى أحاديث حلاوة عذبة
لا يدقّ معناها على أحد من سواد الناس

إن « البيان » الذي سمعتم عنه لا يعرفه الا الأقلون
من كتاب هذا الزمان ، وإلا فأين الكاتب الذي استطاع
أن يصل بقلمه اللئيم الى أفئدة الجماهير من أهل الريف ؟
وعلى من يقع وزر هذه النكبة الوطنية ؟

يقع وزرها على الأساتذة والمؤلفين ، فهم الذين
ملأوا أذهان الناس بالوسوسة اللغوية ، وحرموهم نعمة

الفهم الصحيح

نحن نريد لغة تُشبهُ لغة القوانين والمعاهدات ، نريد لغة محدّدة الألفاظ واضحة المعاني ، نريد لغة موحّدة يُخاطَبُ بها جميع الناس بلا تردّد ولا تهيّب ، وهذه اللغة المنتظرة يجهّدُ في خلقها كتاب الصحف اليومية الذين عرفوا بالتجربة أن لهم « زبائن » في جميع البيئات

— ١١ —

ويتصل بهذا الغرض إصلاح الرسم ، وأنا أدعو إلى التفكير في اختراع حروف جديدة مشكولة ، فإن الرسم الذي نكتب به ناقص أبشع النقص ، ولن نصل إلى تحرير اللغة من اللبس إلاّ يوم نطمئن إلى أن الجماهير المختلفة تنطق الكلمات على نمط واحد ، فقد اتفق لي مرات كثيرة أن أعدل عن كلمة إلى أخرى خوفا من اللبس الذي يوجبه فقد الشكل ، ولو كنت أجد حروفا مشكولة في مثل

مطبعة البلاغ لوصلت في الافصاح إلى ما أريد

والذي أعانيه من هذا الجهد يمانيه جميع الكتاب .

والمهم في هذه المسألة هو إيجاد حروف مشكولة مع

القصد في صناديق الحروف ، فان الشكل ليس بمستحيل

ولكنه غير مستطاع في الجرائد بسبب تعدد الصناديق

وازدیاد نفقات الجمع ، وتستطيع الحكومة أن تقيم (مباراة

خطية) عسانا نجد من يتخترع لنا حروفا مشكولة لا يزداد

بها عدد الصناديق

ولتوضیح هذه المسألة أقول :

إن لحرف الفاء مثلاً أربع صور هي : ف . ف . ف . ف

ولو وضعنا لكل صورة ثلاث حركات لاحتجنا إلى

اثنتی عشرة صورة لكل حرف ، وبذلك تتعدد الصناديق

وتحتاج كل مطبعة إلى مضاعفة عدد الصفاين ، وذلك

عبء ثقيل

وأنا بكل جرأة أدعوكم إلى توحيد الحروف ، أدعو
إلى الاكتفاء بصورة واحدة لكل حرف ، فيكون له وضع
واحد في أول الكلمة وفي الوسط وفي الطرف . ثم يُصَبَّ
من كل حرف ثلاثة أشكال فيها الكسر والضم والفتح ،
مع الاستغناء مؤقتاً عن حركات الإعراب

وهذا الاقتراح يبدو غريباً لأول وهلة لأنه يذهب
بشيء من جمال الخط العربي ، ولكن جمال الخط القديم لن
يساوى ما نظفر به من الدقة والتحديد في الخط الجديد

قد تقولون : إن هذا الاقتراح سيوجب أيضاً زيادة
الصناديق ، وأجيب بأنها زيادة قليلة بالقياس إلى الزيادة
المخوفة التي يرهقنا بها اصطناع الشكل الكامل في الخط
القديم

على أنه لا مفر من التفكير في إصلاح الرسم ، لأن
البدعة التركية في اصطناع الحروف اللاتينية ستلاحقنا

بلا ريب ، فإن لم تتدارك الأمر منذ اليوم فسيكون لشبان
الجيل المقبل آراء في استحسان ما صنع الأتراك
فإن لم تفعلوا — وأرجو أن تفعلوا — فاني أخشى أن
يكون مصير الخط العربي مصير أتعس السمكات الثلاث !

— ١٢ —

ولكن كيف السبيل إلى تقريب اللغة العربية من
قلوب الناس ؟

إن اللغة العربية لا يعرفها أهلها ، لأن المؤلفات
الحديثة خالية من الجاذبية في أكثر الأحوال ، والمؤلفات
القديمة مهجورة لا أنصار لها ولا أشياع ، وآية ذلك أن
مكتبة الأزهر يندر أن يفد إليها أحد من المطالعين ،
ومكتبة زكي باشا لم تجد من يقرأها في قبة الغورى غير
جماعة الفيران !!

والناشرون في القاهرة لا تعيش مكنتهم إلا بفضل
زبائنهم في مختلف الأقطار العربية . أما الاسكندرية
فأمرها عجب ، ومن كان يظن أن تلك المدينة العظيمة
ليس فيها مكتبة واحدة مصرية تضارع بعض ما فيها من
المكتبات الأجنبية ؟

وكذلك يقال في بورسعيد ، وأسيوط ، وأسوان
وخلاصة القول أن اللغة العربية ، لغة التأليف ، ليس
لها في مصر قراء ، وهذا عيب عيس كرامة الاستقلال
إن الشاب الفرنسي يقرأ في كل سنة نحو ستين
كتاباً ، فكيف كتاباً يقرأ الشاب المصري ؟ اسألوا أنفسكم
عما تذكرون من المؤلفات الحديثة أو القديمة التي توصون
بقراءتها من يستفتيكم من الشبان . لقد قضيت في مهنة
التعليم نحو عشرين سنة واختبرت ألوفاً من التلاميذ في
المدارس المصرية والأمريكية والفرنسية ، وكنت أحض

الطلبة على القراءة والاطلاع ، وكان الطلبة يسألون : ماذا
نقرأ ؟ وأقسم صادقاً أنى لم أوفق مرة واحدة إلى الجواب ،
لأنى لا أجد ما أوصى بقراءته غير عدد يسير جداً من
المصنفات لا يفتن ولا يشوق

إن التأليف فى مصر مشلول بالرغم من طنطنة
المؤلفين ، والأمة التى تعجز عن تثقيف أبنائها لا تعرف
مقومات الاستقلال

ينبغى أن يكون فى مصر مؤلفات لكل جمهور ،
وفى مصر نحو عشرة جماهير مختلفة المشارب والأذواق ،
فما الذى صنع كبار المؤلفين لتغذية تلك المشارب
والأذواق ؟

على أن من التعسف أن نلقى اللوم كله على المؤلفين ،
فهذه الجماهير مسئولة أيضاً عن كساد التأليف ، إن هذه
الجماهير لا تعرف المكتبات العمومية أو الخصوصية ،

وأنت في الأغلب تقول في سبيل التعريف : إن المكان
الفلاحي قريب من المحافظة ، قبل أن تقول : إنه قريب
من دار الكتب المصرية

فما السبيل إلى تشجيع التأليف وخلق ذوق القراءة
والاطلاع ؟

لنبداً بالموظفين الذين ننفق عليهم نصف الأيراد
إن جمهور الموظفين لا يقرأ ، ولا يهمه أن يقرأ ، مع
أنهم يمثلون الجمهور النظيف ، فان كنتم في ريب من هذا
الحكم الضارم فانظروا مصير أهم المؤلفات ، فان أعظم
كتاب في مصر لا يطبع في كل مئة سنة أكثر من
مرتين ، أكان يصح ذلك لو كان الموظفون من عشاق
القراءة والاطلاع وهم مُمعدون بالألوف ؟

قد تقولون إنهم يعوّضون ما ينقصهم بالاطلاع على
الجرائد والمجلات ، وهذا أيضاً غير صحيح ، فالموظفون

في الأغلب منقطعون عن الحياة الأدبية ، وقد يلقاني
الرجل منهم فيوجهه إلى أسئلة عن ناس لا يعرف أن صلتى
بهم انقطعت منذ سنين ، وقد اتفق منذ أيام أن أرسل إلى
أحد كبار الموظفين خطاباً على كلية الآداب ، مع أنى
فارقت تلك الكلية منذ أشهر طوال ونشرت عن بعض
خصوصى فيها أكثر من عشر مقالات ، وكنت أظن أن
مثل هذا الحادث يصل صدهاء إلى جميع الآذان
هذا عيب من عيوبنا فلندمغه غير هائبين

ولكن ما هو العلاج ؟

أنا أقترح أن تؤلف في وزارة المعارف لجنة خاصة
بتشجيع التأليف تكون مهمتها فحص ما يصدر من
المؤلفات لتختار ما يجب أن يقتنيه الموظفون ، وفي هذه
الحال أقترح أن تخصص الحكومة عشرة قروش في كل

شهر من كل موظف ، وتقدم إليه في كل سنة خمسة كتب أو ستة من جيد المصنفات

ولو تحقق هذا الحلم خلقنا في الجماهير المصرية ذوق القراءة والاطلاع ، لأن الموظفين في مصر لهم إخوان وأبناء ، وهم سيُمدُّون بهذا المرض الجميل من يتصل بهم من سواد الناس

قد تقولون : وبأي حق تقطع في كل شهر عشرة قروش من مرتب كل موظف ؟

وأنا أعترف بأن في هذا حَجْرًا على الحرية الشخصية !! ولكن مصر في هذه السنين تحتاج إلى مثل هذه التدابير ، فنحن قوم حديثو عهد بالاستقلال ، والاستقلال مقومات على رأسها اللغة كما تعلمون

إن اللغة لا تراد لذاتها ، وإنما يقصد بها التعليم والتثقيف ، ونحن في مصر نحتاج أشد الاحتياج إلى

المُصلِح المُستَبَدُّ الذي يسوقنا سوقاً إلى موارد المعلوم
والآداب والفنون

أتذكرون ما صنع مصطفى كمال حين حرّم لبس
الطرايش ؟

لقد عطّل نحو عشرة ملايين من الطرايش كانت
تُقَوِّم بالوف الجنيات لأنها لم تُعَوِّض إلا بمقادير عظيمة
من القبّعات

وأنا لا أدعوكم إلى تبديد قروش الموظفين ، وإنما
أدعوكم إلى تجميل بيوتهم بنفائس المؤلفات ... أقدموا
على هذه المحاولة الشعرية ، فإن فعلتم فستذكرونني ما عشتهم
بالخير الجزيل

وبجانب هذا الاهتمام بالتكوين الأدبي لجمهور
الموظفين يجب أن نهتم بالتكوين الأدبي لجمهور الشبان ،

ولا سيما تلاميذ المدارس الثانوية

وأنا أقترح إنشاء دروس تاريخ الأدب في تلك
المدارس ، لأن تاريخ الأدب لا يفهم إلا بعد درس الأدب
وأكاد أوقن بأن دراسة تاريخ الأدب في المدارس الثانوية
ليست إلا ضرباً من تضييع الوقت ، وإجهاد العقول
بلاغناء ، وهذا الحكم الصارم لا يؤمن بعدالته إلا من
طافى بتدريس تاريخ الأدب في المدارس الثانوية ، وأنا عانيت
نحو عشر سنين ، وعرفت ما فيه من البلاء الذي يُصَبُّ
على رؤوس الطلاب بغير حساب

ومن البلية أن لا تقدّم وزارة المعارف لطلبة المدارس
الكتاب ألفه جماعة لم يعرف أكثرهم عقلية التلاميذ في
المدارس الابتدائية ولا الثانوية ، ولا دروا كيف يكون
الرفق في مهمة التدريس وإن كانوا من أعلام الزمان . وكان
من العجب أن يفرض على طلبة السنة الثالثة أن يدرسوا

تاريخ الأدب كله من عهد اصرى القيس الى عصر حافظ
ابراهيم ، وهى دراسة سينمائية لا يرضى عنها رجل يعرف
مهنة التعليم

وقد خُفِّفَ البرنامج أخيراً بعض التخفيف ، ولكنه
لا يزال غير صالح ، وإلا فكيف تنتظر من تلاميذ السنة
الأولى فى المدارس الثانوية أن يدركوا الفرق بين كاتب
يُغَرِّمُ بالبديع وآخر لا يتكلف البديع ، وقد عرضتُ لى
هذه المشكلة مع طلبة الاليسيه فشرحتها صرات بالعربية
وصرات بالفرنسية ، ثم صدفت عنها صدوف اليائسين

إن درس تاريخ الأدب بدعة نقلناها تقلا عن أوروبا ،
وهى مقبولة هناك ، لأن الأدب الاوربى يكثر فيه القصص
والتمثيل ، وهى موضوعات ألفها التلاميذ ، لأنهم منذ
الطفولة عرفوا القصص وعرفوا التمثيل ، فلا يصعب عليهم
أن يفهموا الفرق بين فن وفن ، وعصر وعصر ، وأسلوب
وأسلوب

أما في مصر فالأدب في جملته يتحدث عن شؤون
جديّة لم يعرفها الشبان من قبل ، فمن العسير أن يدركوا
كيف تطور واستحال من جيل الى جيل

إن تاريخ الأدب لا ينبغي أن يدرس إلا في المهاد
العالية ، أما المدارس الثانوية فيدرس فيها الأدب الصّرف ،
مع العناية بشرح النصوص ، والبحث عن مواطن الجمال
في النثر الجيد والشعر البليغ

درس تاريخ الأدب في المدارس الثانوية بجهْد ضائع
وسنصبر عليه الى أن تسوق المقادير الى وزارة المعارف
رجلا حاذقاً من بين الذين عرفوا عقلية التلاميذ ، وما أظن
أننا سنصبر طويلا ، لأن العناية باصلاح التعليم تزداد من
يوم الى يوم

والى أن تمحذف تلك المادة الفضولية نوصى أساتذة

اللغة العربية بأن يتخيروا للمطالعة والمحفوظات نصوماً
لا تخرج عن المصر الحديث ، لأنه أقرب المصور الى
أذهان التلاميذ ، وقُرْبُهُ من أذهانهم يساعد المعلمين على
بيان ما يتصل به من الملابس الخلقية والاجتماعية ، ويمكن
التلاميذ من فهم ما فيه من أمرار البيان

قلم ان اللغة من مقومات الاستقلال

فما الذى يمنع من تعريف التلاميذ بالمصاومات الادبية
التي تتصل بالحياة السياسية ؟

ما الذى يمنع من دراسة ما وقع بين رجال الاحزاب
ما الذى يمنع من دراسة المناوشات الحزبية التي عرقها
مصر في الثلاثين عاماً الماضية ؟

ما الذى يمنع من درس ما وقع بين كبار الكتاب من
صنوف الجدل وضروب النضال ؟

ما الذى يمنع من درس السخرية التي عاناها محمد عبده
من معاصريه ؟

ما الذى يمنع من درس رسائل عبد العزيز وشاويش
فى نقد سعد زغلول ؟

ما الذى يمنع من تقليب الصحف الفكاهية ودرس
ما فيها من النكت اللواذغ التى صُوِّبَت الى رجال
الاحزاب ؟

ما الذى يمنع من درس وطنيات حافظ ؟
بل ما الذى يمنع من درس المنشورات التى طُبِعَتْ
فى سنة ١٩١٩ ؟

إننى أوصى بخلق الفرص لتشويق التلاميذ الى درس
الادب الذى يُحيى النزعة القومية ، ويبعث فيهم روح
الشوق الى حياة الاستقلال

أقول هذا وأنا أعلم أن ما أوصى به آتٍ لا ريب فيه ،
ولكن من الخير أن يعلم أبناؤنا اننا نفكر بمقول

المستقلين ، وأتينا لانمزح حيث نتكلم عن مقومات
الاستقلال

ذلك ما نوصى به في التعليم الثانوى ، فاذا انتقلنا الى
التعليم العالى فرضنا على أبنائنا أن يتممقوا في درس تاريخ
الادب العربى ، ورُضُنّاهم على تذوق النصوص المختلفة ،
وانتظرنا منهم أن يكونوا من أعلم الناس بالادب والتاريخ
وفى هذه الحال لا يرضينى أن يكتفى أستاذ الادب
بالطواف حول حياة الكاتب أو الشاعر أو الخطيب ، بل
يجب أن يهتم بدرس الصلات بين الادب والاجتماع ، وأن
يُعْرِى تلاميذه بخوض الحياة ، حياة الجدة والاقتحام ،
فتكون لهم مواقف يسجلها التاريخ ، على نحو ما اتفق
لاقطاب الادب فى العصر القديم

والاستاذية فى مثل هذه الاحوال توجب أن يكون

رجال الأدب رجال أعمال ، فقد شبعنا من تلك الشخصيات
المصقولة التي تحسن الأسرار والأحاديث ، نريد أساتذة
مقتضمين مفاشرين يشتركون في الحياة النياية ، ويتصلون
بأمتهم وتلاميذهم اتصالاً قوياً له أسباب وأوتاد من حياة
المجتمع اللاجب الصخب

فاذا انتقلنا من الأدب وتاريخ الادب في المدارس
الثانوية والعالية ، تلفتنا نبحت عن الاديب المخلوق لدرس
الحياة ، ونحن نرجو أن يكون في أساتذة الادب من
يخرج على الذوق المتكلف والوقار المصنوع ، نرجو أن
يكون عندنا أساتذة يزورون تلاميذهم في بيوتهم ،
ويرافقونهم في الحفلات والسهرات ، ويطوفون بهم على
الأحياء الشعبية ليعلموهم كيف تكون الثورة على ما في حياة
الشعب من بؤس وشقاء

نريد أساتذة يربون تلاميذهم على مرافقة المال
والصناع والفلاحين ليكونوا في المستقبل من حملة الأقلام
الثورانية التي تبدد غياهب الجهل والخرول

نريد أدباً يبعث في الشعب روح التمرد على الفقر
والمسكنة والذل ، ويروضه على الطمع الشريف في الفنى
والكسب والعزة والكبرياء

نريد أدباً يطمئنا في استرجاع ما أضاع الزمان من مجد
مصر والنيل

نريد أدباً يرفعنا الى صفوف الجوارح ، نريد أدباً
يعلّمنا فضل الخلب والناب ، نريد أدباً نسيطر به على الدنيا
غير باغين ولا عادين

ولن تكون اللغة من مقومات الاستقلال الآحين
تسود في وطنها سيادة قاهرة فتسيطر على العقول والمشاعر

والأذواق ، ولا يتم لها ذلك الا يوم يقوى أدبها ويستفحل
فيشغل الناس بدرس قلوبهم وأهوائهم وأخلاقهم ، ويكون
له شعراء وكتاب ومحدثون يغزون القصور والأكواخ .
ومن الحزم أن نشير الى وجوب العناية بتربية الشبان على
حب وطنهم في ماضيه وحاضره ، ولا يكون ذلك الا بقهر
الأدب على تصوير ما مرّ بمصر من نماء وبأساء ، وما
شهدته من أنوار وظلمات ، وما يساورها من مخاوف أو
يداعبها من آمال

يجب أن يوجه الأدباء عنايتهم الى خلق بيئة أدبية
يكون جدها وهزلها متصلا بحياة الوطن كل الاتصال ،
يجب أن تكون أحزاننا وأفراحنا ، وإسفافنا وتحليقنا ،
وضلالنا وهدانا ، وآلامنا وآمالنا مصورة فيما تنشئ من
الرسائل ، وما ننظم من القصائد ، وما نكتب من المؤلفات
وما نتفنئ به من الأناشيد

اننا لا نحب وطننا أصدق الحب ، لأن غرامنا به
لم يشبهه شيء من التصوف والروحانية ، وكان ذلك لأن
الشعراء لم يخلقوا في قلوبنا ذلك الحب ، وكيف يخلقونه
وقد غفلوا عن الاشارة بما انتثر من معالم الحب والمجد على
ضفاف النيل ؟

لقد جلست لحظة منذ أيام في ذهبية ، ثم مرّت سفينة
فانتشيت ، أتعرفون السبب ؟ لقد طاف بالخاطر حركات
دجلة والفرات التي تفتّى بها شعراء العراق
أكنت أقاسي هذه الغربة الروحية لو أن شعراءنا
شوّقونا الى سفان النيل ؟

أتذكرون قول الشاعر العراقي :

يَا لَيْتَ مَاءَ الْفُرَاتِ يُخْبِرُنَا
أَنَّ أُسْتَقَلَّتْ بِأَهْلِهَا السُّفُنُ

إن هذا البيت أمة من الشعر الجميل ، وكان مما يحفظ

جميع أهل العراق ، فهل تذكرون شاعراً مصرياً حبيب
الينا النيل على نحو ما فعل ذلك الشاعر في تمجيد الفرات ؟
أين مآسينا ، أيها الشعراء !

أين القصائد التي تصوّر ما عانتها مصر يوم حريق
الفسطاط ؟

أين الشعر الذي يمثل مذبحه المالك ؟
أين القصص التمثيلية التي ترينا أشباح الليالي السود
حين انهزم الجيش المصري في الموقعة التي لم يحف دمها
إلى اليوم ؟

أين القصائد والرسائل التي تصور عيوبنا الأخلاقية
وقد عانينا صنوف البلايا والأرزاء من شيوع المحسوية
والتزلف والنفاق ؟

وأين مواسمنا الغرُّ أيها الأدباء ؟
أين القصائد والرسائل والخطب والمؤلفات التي

تفصح عن عبقريتنا في مقاومة الخطوب ؟

إن صبر الجيش المصرى على منازلة الجيش الأنجليزى
فى معركة فاصلة دامت ثلاث عشرة ساعة هو فى ذاته نصر
مبين ، ولكن أين من يفهم دقائق المعانى فى حياة
الشعوب ؟

دُلُونى على كاتب واحد استطاع أن يخلق فى قومه
الشعور بأنهم يعيشون فى وطن نبيل ؟

دُلُونى على كاتب واحد عمد الى الجوانب القوية من
زعمائنا وقادتنا فى القديم والحديث فأفصح عنها إفصاحاً
يجعلها مضرب الأمثال فى المشرق والمغرب على نحو ما صنع
كتاب الانجليز والفرنسيين والاطليان والألمان ؟

أيها الناس

إن اللغة لا تكون من مقومات الاستقلال الا يوم
تشغلنا بخاوفنا وأمانينا ، ويوم تصبح من القوة بحيث

يكون لها عشاق في المشرق والمغرب ، ويوم تطنى في
وطنها وتستطيل فلا يكون لها مزاحم ولا منافس ولا
شريك

وخلاصة القول أن اللغة لا تكون من مقومات
الاستقلال إلا يوم يشعر الناس جميعاً بأن لها في وطنها
سلطاناً دونه كل سلطان ، يوم يشعر من يدخل ميناء
الاسكندرية أو بور سعيد أنه في حاجة الى مترجم ، وأن
مصالحه تُعطّل إن جهلها كل الجهل ، على نحو ما يقع لكل
وافد يطأ الأرض الفرنسية أو الإنجليزية أو الألمانية

وأول ما يجب لتحقيق ذلك هو إعزاز اللغة في أنفس
أبنائها ، وهي لا تعزّ في أنفسهم الا حين تغنيهم أو تكاد
تغنيهم عن جميع اللغات ، حين تصبح لغة العلم والمدنية
فيجد فيها كل طالب ما يسعفه من المراجع في العلوم
والفنون والآداب

لا تكون اللغة من مقومات الاستقلال الا حين تفي
بأغراض الجد والهزل ، وتربط أبناءها بتأصيلهم وحاضرهم
ومستقبلهم أوثق رباط ، وسيكون هذا مصير اللغة العربية
في مصر إن صحت العزائم وسامت النفوس
وهذا أمل ليس بالبعيد ، فلا تحسبوني من الخاملين

— ١٩ —

والدين ؟
أهو أيضاً من مقومات الاستقلال ؟
وكيف وفي الشرق والغرب ناس يتحللون من الدين
ليعيشوا سعداء ؟

هذه فرنسا تحارب رجال الدين وتحول بينهم وبين
مناصب التعليم ، ثم تعيش مع ذلك في حرية واستقلال
وتلك تركيا تقيم أظفار الأشياخ وتقبل على الحياة
المدنية ، فلا يزيدا ذلك إلا قوة الى قوة ، واستقلالاً الى
استقلال

ولكن مهلاً ، فإن تلك الأمم القوية لم تحارب غير
الدين المزيف ، أما الدين الصحيح فهو بلا ريب من
مقومات الاستقلال

الدين المزيف بلاؤه يصبّه التأخر على الأمم والشعوب
لأنه يمنع الكسالى والعاطلين سلطاناً خطراً يشلّ حركة
التقدم والتهوض . ورجال الدين المشعوذون لهم سوابق في
قتل الحرية ، واضطهاد الأحرار ، وطمس معالم العلوم
والفنون

أما الدين الصحيح فهو ثروة قومية يجب أن يحرص
على تنميتها ساسة الشعوب

الدين الصحيح حجاز من الزيف والإفك والبُهتان ،
وهو حين يقوى يصبح من أدق الموازين في ضمائر الأفراد
ويغني الدولة غنى لا يعرف قيمته إلا من يعرف ما للخلق
القويم من أثر حميد

لو كان للدين سلطان على أرواح الناس لانعدمت
النائم والسعيات والوشايات، وانقطعت هذه المجازر البشرية
التي يخلقها الدس والاعتياب

لو كان للدين سلطان على أرواح الناس لما رأينا شهود
الزور يضللون القضاء بلا حياء

لو كان للدين سلطان على أرواح الناس لما استطال
الأقوياء على الضعفاء ، ولما رأينا ذلك الحق الذي يبيته
الفقراء للأغنياء

لو كان للدين سلطان على أرواح الناس لقلّ البغي
والعدوان ، وعرف كل امرئ قدر نفسه ، واطمأن الى أن
الله مالك الملك ، يؤتي الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن
يشاء .

الدين ثروة قومية وهو عماد من عمود الاستقلال ،
لأنه يصحح ضمير الفرد ، والفرد الصحيح الخلق ليس إلا
حجراً سليماً في بناء القومية

حدثني بربك ما هذه الملايين التي تسمر وادى النيل ؟
ما قيمة هذه الملايين وأنت لا تستطيع الأخذ والعطاء إلا
بسند مكتوب ؟

اذهب الى أية محكمة واحضر جلسة أو جلستين ، فان
فعلت فسترى القاضى ينفق أربعة أخماس جهده فى فحص
المستندات واستجواب الشهود

أ كان يحتاج القاضى الى ذلك كله لو كان للناس وازع
من خُلق ودين ؟
الله أكبر !

لا يزال من تقاليد القضاة أن يقولوا للشاهد : قل :
« والله العظيم أشهد بالحق »

وكم رأينا ناساً يحلفون بالله العظيم ثم لا يشهدون
بالحق !

ما قيمة هذه المخلوقات ؟ وما الذى يفرحنا حين

نَمُدُّهُمْ كُلَّ خَمْسِ سَنِينَ قَرَاهُمْ زَادُوا مَلِيُونًا أَوْ مَلِيُونَيْنِ ؟
ما قيمة هذه المخلوقات وأنت لا تعادى من تعادى
ولا تصادق من تصادق إلا على حَذَرٍ ؟
ما فضل هذه الملايين وليس فيهم من يعصمه الحياء
من الزور ، أو يعصده الدين عن البهتان ؟
خاصم رجلاً واحداً ، على سبيل التجربة ، ثم انظر
كيف يقع في عِرْضِكَ ، وكيف يَلْغُ في دَمَكْ ، وكيف
ينسى أنه مستُولُ أمام الله عما يقترف لسانه النَّجَسُ
الْخَبِيثُ !

إنك لا تستطيع اليوم أن تعادى أحداً في سبيل
الحق ، لأن الدنيا انقلبت إلى مطامع يترفع عنها الحيوان
أثروني أظلم قومي ؟ أنا لا أظلمهم ، وإنما أشرح بلية
اجتماعية يشكو منها أحرار الرجال

تقولون إن الدين من مقومات الاستقلال ، فدعوني

أشرح كيف يكون ذلك ، وأنا أصرِّح بأن ما نمانى
من البلى الأخرى لم يقع إلا بسبب ضعف الدين ، ولو
كان الناس يؤمنون بأن الله يعلم ما يضمرون وما يعلنون
لكفَّ قوم عن إيذاء قوم ، وتورَّع فريق عن الإضرار
بفريق

— ٢٠ —

الدين من مقومات الاستقلال
ولكن أى دين ؟

أهو ذلك الدين الذى يتمثله ناس فى الصلاة والصيام
واصطناع شمائل النساك ؟
لا ، لا

الدين الذى يبنى الأمم هو الدين الذى يهتم أهله أولاً
وقبل كل شىء بالفضائل الإيجابية
لا يكفى أيها الناس أن تصلوا وتصوموا وترسلوا

لِحَاكِمٍ وَتَكْثُرُوا مِنَ التَّسْبِيحِ ، فَهَذِهِ فُضَائِلُ ، وَلَكِنِهَا
فِي رُوحِهَا فُضَائِلُ فَرْدِيَّةٌ

إِنِّ الدِّينَ الَّذِي يَسْنَدُ الْاِسْتِقْلَالَ هُوَ الدِّينَ الَّذِي
صَوَّرَهُ الرَّسُولُ حِينَ قَالَ

« الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبَنِيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا »

الدِّينَ الَّذِي يَصُونُ الْاِسْتِقْلَالَ هُوَ الدِّينَ الَّذِي يُوْحِي
إِلَيْكَ بِأَنْ تَكُونَ عَوْنُ أَخِيكَ فِي الْمَغِيبِ ، هُوَ الدِّينَ
الَّذِي يَفْرُضُ عَلَيْكَ الْاِيْمَانَ بِأَنْ عَرْضُ أَخِيكَ هُوَ عَرْضُكَ
وَمَالُهُ مَالُكَ ، وَهُوَاهُ هَوَاكَ

هُوَ الدِّينَ الْمَضْمُوحُ بِالنَّفَحَاتِ الشَّعْرِيَّةِ الَّذِي يُوْجِبُ
عَلَيْكَ أَنْ تَفْرَحَ لِفَرَحِ أَخِيكَ ، وَأَنْ تَحْزَنَ لِحْزَنِهِ ، وَإِنْ
تَقَطَّعَتْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ الْأَسْبَابُ

هُوَ الدِّينَ الَّذِي صَوَّرَهُ شَوْقِي حِينَ قَالَ :

مَقْدُونِيَا - والمسلمون عشيرة -

كيف الخُولةُ فيك والأعمامُ

هو الدين الذي تتمثل به كل فرد من أمتك وكأنه
إنسان من أهلك

هو الدين السميع الكريم الذي تغني به الرسل
والأنبياء

وهذا الدين الذي نتحدث عنه هو الدين الذي يرفع
قواعد الاستقلال ، وبدونه لا يُرْفَعُ لأمة بناء

إن الدين الحق يوصي بـدفن الضغائن والحقود ،
والناس لا يستطيعون التعاون على بناء الوطن إلا إن
استطاعوا التعاون على بناء الإخاء

فانظر أين أنت من إسعاد قومك ، فإن كنت رجلا
يفرح لفرح عدوه ويشجى لشجاءه ، فأنت امرؤٌ فيك
خُلُقٌ ودين ، وإن كنت لا تفكر إلا في نفسك وفي

أشيا عك فأنت من العصبية الوحشية التى أطال فى ذمها
الحكماء

الدين من مقومات الاستقلال

ولكن أى دين ؟

أهو ذلك الدين الذى يقوم على قواعد الرياء ؟

رباه ، ماذا قاسينا من عنف المرائين !

إن الرياء فى الدين بابٌ إلى الخراب ، لأنه يروض

الناس على التكلف والأفتعال فيما يأخذون وما يدعون ،

ويوحى إليهم أن المراوغة لباقةٌ وذكاء

أنا أشتهى أن أومن ، ولكن الشوق يَخمَدُ فى

قلبي كلما تذكرت أعمال المرائين

أليس من الحق ، أيها الناس ، أن الصراحة فى زماننا

مُخلَقٌ بغيضٌ ، وأن النفاق يسمو بصاحبه أحياناً إلى أرفع

الدرجات ، وأن المداهنة أصبحت أمضى سلاح ؟

تلك بلية خلقية^{٦٨} نشير إليها كارهين ، لأنها تهدم
قواعد الاستقلال ، ونحن لا نذكر الاستقلال لاهين ولا
عابسين ، وإنما نقرّم بالاستقلال لأن فيه شرف الشعوب ،
ولن تشرف أمة تتغاضى عن أعمال المرائين

ولست أوصى باعلان الحرب على أهل النفاق ، وإنما
أوصى بالحدز منهم ، لأنهم شؤس الخراب في هيكल
الاستقلال

ومن واجب القاعين بالأمر أن يحذروا المناققين ،
لأن النفاق خليق بأن يأتي على بناء الوطن من القواعد ،
والعياذ بالله ، وإنما أعنى الرؤساء الذين يصغون إلى كل
مُرجف ، ويصيخون إلى كل مشاء بنميم ، أوصى بالحدز
من مرضى الحذقة والمراعاة وافتعال النزاهة والاخلاص ،
أوصى بالفرار من كل مخلوق لا يضحك الا حين يكي

الناس ، ولا يفرح إلا يوم يحزنون

وإلى من أتوجه بهذا النصيح ؟

لست أدري والله إلى من أتوجه فقد ساء ظني بأبناء

الزمان ، ولكن لا بأس من توجيه القول إلى من تفضلوا

بدعوتنا إلى الكلام عن فضل الدين في بناء الاستقلال ،

ولا بأس من توجيهه إلى أعضاء لجنة التحكيم في المباراة

الأديبة ، فقد أغناهم الله من فضله ، ورفعهم عن مذاهب

الضعفاء ، وكل رجل منهم يقدر بلا مشقة على حرب هذا

الخلق الذي ينافي الدين الصحيح ويهدم الاستقلال

وليس من الفضول أن أتوجه إليهم بذلك فقد دعونا

إلى إبداء ما عندنا من آراء ومقترحات ، ومن الفضل أن

يصفي الآباء إلى الأبناء ، وليس أمام الحق فاضل

ومفضل

أحب أن أعرف كيف يكون الدين سياجاً لبناء
القومية ، وأنا أتمثله قوة معنوية وروحية تضمن سلامة
الوطن من الوجهة الداخلية ، فإذا تحابَّ الناس وتضافوا
وتآلفوا كانوا قوة هائلة شبيهة بالأعضاء القوية في الجسم
السليم

إن الأخلاق الدينية في بناء الأمة تذكرنا بالجراثيم
النافعة التي يقوم عليها جسم الإنسان ، ألم تسمعوا أن هناك
جراثيم في داخل الجسم تَتَبُّ دَفْعَةً واحدةً في وجه
الجراثيم الضارة التي تَقْدُ مع الطعام أو الشراب ؟
كذلك تفعل الأخلاق الدينية ، فإن الأمة حين تَصِيحُ
في دينها تظلُّ قوية متينة ، لا يَفْدُ عليها واغِلُّ إلا دفعته
عنها بقوة وجبروت

وهذا هو التفسير الحق لكلمة من قال : إن الدين

عن مقوّمات الاستقلال

ثم ماذا ؟

إن الدين الحق يعصم من الشقاق ، ولن يكون
الدين من مقوّمات الاستقلال إلا حين يصون الوحدة
القومية من التفكك والانحلال ، ولعل السرفى كره
البدع أنها تقسم الناس إلى شيع وأحزاب ، وتفرّيقهم
بالتعادي والعناد ، وترميهم بأسباب الفتون

والأمة السعيدة بدينها هي الأمة الموحدة المذهب ،
أما الأمة المشتتة في نوازعها الدينية فهي أمة ضعيفة الرأي ،

منحلة العزم ، لا يُرجى لها سلام

ولكم أن تستفتوا التاريخ

أتذكرون كيف سقطت بغداد في أيدي التتار ؟

إن ذلك لم يقع إلا بسبب انقسام الأمة المراقية إلى عصبتين
مختلفتين في الدين

وما لنا نستشهد بالتاريخ ؟ إن في الحاضر عبرة ، فقد
جدت في مصر نفسها فتن دينية يعرفها من يخالط السواد في
الأحياء الشعبية ، ويكفي أن يعرف القارئ أن في القاهرة
مساجد يدخلها ناس ، ويُطرد منها ناس ، وأن في بعض
القرى عائلات تتقاطع أبشع التقاطع بفضل الانقسام في
مذاهب الدين

ولست بهذا أوجب أن يُقفل باب الاجتهاد ، وإنما
أوصي بأن تحصر الأبحاث الدينية على البيئات العامة ،
وأنصح بأن يُحرس العامة حراسة شديدة من المشاركة في
الخلافات المذهبية والدينية

إن العوام هم ذخيرة الأمة ، ومنهم يتكون الجيش
وبفضلهم تقوم المتاجر والمزارع والمصانع ، فمن الحزم أن

يمشوا على عقيدة واحدة ومذهب واحد ، ومن البلاء
أن تتكرر المأساة التي وقعت في شبين الكوم منذ عام ،
والتي تقع أشباهها في كل يوم ، وإن لم تدوّن أخبارها في
محاضر البوليس

ومن الحزم أن تسارع الحكومة إلى حراسة
الأهلين من اتقسامات الصوفية ، فإن التصوف أصبح في
أكثر البلاد من أسباب الشقاق ، مع أنه في الأصل من
أسباب الألفة والصفاء

ولا يمكن تحقيق هذا الغرض إلا بتخيير من يقومون
بالدعايات الصوفية ، ويجب أن يكونوا من أهل النزاهة
والإخلاص . أما جعل الديار المصرية مسرحاً للمفاضلة بين
الخلوتية والشاذلية فهو باب من الشر لا يعرف أخطاره
إلا من عرف عقول العوام ورأى كيف يختصمون
ويقتتلون لأتفه الأسباب

يظهر أنكم ترتابون في خطر الشقاق
تفضلوا بتأمل هذه الصورة :

يذهب المصلون إلى المسجد الجامع يوم الجمعة
فيسمعون سورة الكهف بقاوب لا تخلو من قلق ، لأن
فيهم من يراها سنة ، وفيهم من يراها بدعة ، فاذا أذن
المؤذن انقسموا إلى فرقتين : فرقة تبسح السلام على النبي
بعد الأذان وفرقة تأباه ، فاذا قامت الصلاة رأينا من يسبر
القراءة ، ورأينا من يكتفي بقراءة الامام ، فاذا انتهت
الصلاة رأينا جماعتين : جماعة تعلى الظهر وجماعة
تنصرف

وهذه الصورة لا يعرف خطرها المثقفون من أهل
الحواضر لأنهم لا يقيمون وزناً لأمثال هذه الشؤون ، إذ
كانت عقولهم أرفع من أن تختصم في غير مختصم ، ولكنها تبدد

قَوَى الأهلَى فى الرىف ، وتهذُّ من بناء الاستقلال
وأنا أقترح أن يطبَّ أهل الرأى هذا الجرح ، وأتمنى
أن تعيش الأمة كلها على مذهب واحد فى الأصول
والفروع ، على نحو ما كانت تركيا فى العهد القديم ، فقد
كانت فى مسائل التوحيد على رأى واحد ، وكانت فى
التشريع على مذهب واحد ، ومن المحقق أن وحدة تركيا
فى نوازعها الدينية ، كانت من أهم الأسباب فى سلامة
وحدتها القومية

أقول هذا وأنا أعرف أن خطر الانشقاقات المذهبية
فى مصر صائر إلى الزوال ، ولكن لا بأس من التنبيه إلى
ما بقى من أوزاره ليحذره المصلحون

وتظهر بشاعة الانقسام إذا تذكرنا ما فقدنا بسببه

أتذكرون السر في تفضيل صلاة الجماعة ؟ أتذكرون
السر في الدعوة إلى اجتماع أهل البلد الواحد ، في مسجد
واحد ، مرة في كل أسبوع ؟ أتذكرون السر في التشويق
إلى أداء صلاة العيد في ضاحية البلد ليتيسر للناس جميعاً أن
يتصافحوا بالأيدى والقلوب ؟

تذكروا السر في ذلك لتعرفوا أننا حُرُّمٌنا نعيماً كثيراً
منذ ابتلينا في ديننا بالخلاف

وليس هذا كل ما حُرِّمناه ، فقد انعدمت صلاة
الجماعة أو كادت ، ومضت صلاة العيد إلى اللحاق بذكريات
التاريخ ، ولم يبق لنا نصيب من أسباب الصفاء

ليت من يختصمون ويقتتلون بسبب المنازعات
الأدبية والسياسية يعرفون السبيل إلى المساجد ! إنهم لو
فعلوا لكان من اليسير أن تذهب أحقادهم حين يتصافحون
عقب الصلاة

ليت من يتعادون يلتقى بعضهم ببعض في صلاة
العید ! إنهم لو فعلوا لدفنوا أحقاد المام الماضي ، وقلّدوا
المام الجديد وساماً من ودّ جديد

أليس الصفاء الذى نشير إليه من بعض ما يصنع
الدين فى بناء الاستقلال ؟

لقد حاول سموّ الأمير عمر طوسون منذ سنين أن
يجمع أهل الاسكندرية فى مكان واحد فى أيام الأعياد ،
وكانت فكرة سامية ، ولكنها لم تنجح مع الأسف الشديد

فما الذى يمنع من إمضاء هذا رأى مرة ثانية باسم
الدين ؟ ما الذى يمنع من جعل الأزهر ملتقى لأقطاب
البلاد ، فى أيام الأعياد ؟

بل ما الذى يمنع من خَلْق صورة جديدة للتشريفات
الملكية ، بحيث تكون موسماً أغرّ تلتقى فيه القلوب
والأهواء ، ويتنادى فيه الناس باسم الحق والدين ؟

إن أكبر ما يعاب به أهل مصر هو موقفهم موقف
المتفرجين في أيام الشقاق ، ولو عرفوا أن دينهم يوصيهم
باصلاح ذات البين لَوَقَرُوا مصر كثيراً من أسباب الفتون
إن الدين من أهم القُوى في خَلْق التماسك الاجتماعى ،
والتماسك الاجتماعى أهم ما يُحَفِّظُ به بناء الاستقلال

— ٢٦ —

وليس هذا كل ما يصنع الدين في بناء الممالك
والشعوب ، فهناك مزية أساسية هي خَلْق الشجاعة في
نفوس الناس

الشجاعة ؟

أى شجاعة ؟

نعم ، الدين يخلق الشجاعة في النفوس ، ولولا الايمان
بعدل الله ورحمته لهدمت عزائم ، وتحطمت قلوب ،
وانطفأت أرواح

إن الرجل المؤمن يلتقي المكاره باسمًا ، ويوقن في كل لحظة بأن الشر لا يطارده إلا لحكمة سامية ، وبذلك يظل سليم القلب والوجدان ، فيحيا حَجراً سليماً في بناء الاستقلال

الرجل المؤمن لا يتهيب العيش لأنه يعرف أن الرزق بيد الله ، وتهيَّبُ العيش بِمُحَنَّةٍ خُلُقِيَّةٍ ابْتَلَى بها شبان هذا العصر ، فأنصرفوا عن الزواج فراراً من الذرية التي تعرضهم فيما يزعمون للفقر والإملاق

نريد لمصر جيلاً مؤمناً يخاصر وهو متوكلٌ على الله ، فينتصر وهو شاكر ، أو ينهزم وهو صابر

نريد جيلاً يؤمن بأنه مسئول أمام الله قبل أن يكون مسئولاً أمام الناس

نريد جيلاً يبحث أولاً عن الحق ، ثم يُقَدِّمُ إقدام الشجعان واثقاً بأن النصر نصيب المؤمنين ، وأن العاقبة للصابرين

نريد جيلا يستهين بطغيان الطاغين ، وكيد المفسدين
ولوؤم الحاقدين ، لأنه يؤمن بأن الله أكبر ، ويوقن بأنه
سَيَمُنُّ على الذين استضعفوا في الأرض ويجعلهم أئمة ويجعلهم
الوارثين

والشجاعة التي يخلقها الدين في القلوب هي أساس
كل خير ، فان الرجل الذي لا يملك زمام نفسه في حياة
البيت ، لا يصلح جندياً في الجيش . ولا يمكن لمن عجزوا
عن سياسة أنفسهم أن يصلحوا لسياسة أمتهم ، ومن عجز
عن الكفاح الشريف في سبيل الرغيف لن يقوى أبداً
على الجهاد المشروع في سبيل الوطن الغالي

وكيف يُصان الاستقلال إن لم تحطه عزائم بُدِيتْ
على الايمان الصحيح ، الايمان بأننا لم نُخلَق عبثاً ، وأن
النضال في سبيل المجد الروحي والوطني من أشرف الغايات
في الوجود ؟

ومعصر من أقدر الأمم على تقوية العقيدة الدينية ،
ففيها الأزهر الشريف ، وعندها من رجال الدين ألوف
وألوف

أفأستطيع أن أقول كلمة عن واجب الأزهر الشريف؟
ما أحسبني أخرج عن الموضوع ، فان لجنة التحكيم
دعت الى إبداء ما عندنا من آراء ومقترحات. وأنا أعوذ بالله
من الفضول

الأزهر يستطيع أن يضاعف جهده في خدمة اللغة
والدين

يخدم اللغة لأن في إذاعة النصوص الإسلامية خدمة
لغوية ، وليس من الأسراف أن نحكم بأن حياة اللغة بين
الأهلين ترجع الى حفظ القرآن وتلاوته في المآتم
والأفراح ، وللمدائح النبوية فضل في إذاعة النصوص

الأديبة ، والألفاظ اللغوية ، فإن المنشدين الذين يتفننون
بمدح الرسول تركوا في أذهان الناس مئات من الصور
الشعرية ، وعلموهم كثيراً من طرائق التعبير ، وأمدّوهم
بكثير من المعارف في حوادث التاريخ
فما الذى يمنع من إنشاء لجنة أزهية للمطبوعات
الدينية ؟

ما الذى يمنع من نشر مجموعة لطيفة تذيع بها نحو ألف
حديث من كلام الرسول ، ونطبع منها ملايين توزع بـشمن
يقدر عليه جمهور الفقراء ؟

ما الذى يمنع من نشر مجموعة تحوى أروع الأخبار ،
أخبار الصّديقين والشهداء ؟

وما الذى يمنع من اختيار طائفة من الأحاديث
والآثار تكون مادة للمطالعة في المدارس الابتدائية
والثانوية ؟

وبهذه المناسبة أصراركم بأن الصلاة كادت تنقطع بين
الأزهر ووزارة المعارف ، بل هي انقطعت فعلاً منذ أعوام
طوال ، وأخشى أن تكون هذه القطيعة بداية المداوة بين
الحياة المدنية والحياة الدينية ، وهي عداوة خطيرة العواقب
ومن واجبنا أن نتقى شرها منذ اليوم

وأنا أقترح أن يُلحَظَ في التاميز أنه سيكون عضواً
في المجتمع الشعبي قبل أن يكون عضواً في المجتمع المثقف ،
والمجتمع المثقف قد لا يضره أن يجهل أصول الدين ، لأن
حياته في الأغلب موصولة بالمدينة الغربية التي تناست
خطر الدين

ولكن ما هو المجتمع المثقف الذي نعتمد عليه في
بناء الاستقلال ؟

أهو تلك الفئة القليلة الضئيلة التي تمضغ الأخبار في

القهوات ، ولا تصلح لاقامة مصنع أو متجر أو مزرع ،
ولا تقوى على مواجهة الخشونة في حياة الجنديّة ؟
المجتمع الشعبي هو الأصل ، فلنرضُ أبناءنا على فهم
ما فيه من قواعد وأصول ، وهو لا ينهض إلا على أساس
الدين

— ٢٩ —

وهذا يفرض علينا أن نفكر جدياً في مصير التربية
الأزهرية فان الأزهرين لهذا العهد لم يعد يهمهم أن يتصلوا
بالحياة الشعبية ، فقد انتهبوا كلمة « المستقبل » من تلاميذ
المدارس ، وأخذوا يترقبون حظوظهم في المصالح
والدواوين ، وذلك من أهم المقاتل في حياة الاستقلال
لقد آن للأزهر أن يعرف واجبه ، آن للأزهر أن
يفكر في استرجاع سلطانه الذي ضاع
أين الأيام التي كان يحتفل فيها الأهالي بقدوم

الأزهرى الصالح الذى يحدثهم عن الله والرسول ؟
أين الدروس التى كنت أشهدها وأنا طفل بعد صلاة
المصر فى رمضان ؟

أين الآمال الحلوة التى كنا نسمعها من العلماء عن
مصير الصالحين ؟

أين ، أين تلك الوسوسة الخلقية الظريفة التى كانت
تنتاب من يخرج على بعض آداب الصلاة أو الصيام ؟
أين الزواجر التى كان يرتعد من هولها من يقتربون
إثم النيمة والاعتياب ؟

أيها الناس !

أنا أشتى أن أومن ، نخذوا بيدي موقِّعين الى رحاب
الدين ، الدين السليم من أضرار الشرك والرياء

والعادات ؟ أهى أيضاً من مقومات الاستقلال ؟

نعم ، العادات من مقومات الحياة في الممالك والشعوب ،
ولكن كيف ؟ إن ذلك يحتاج الى تفصيل

ولنبداً فنذكر أن العادات كلمة قديمة كان يسميها
ابن خلدون عوائد ، وهي اليوم تعرف باسم التقاليد ،
ويكاد العُرف الحاضر يفرق بين اللفظتين : فالعادات
للأفراد ، والتقاليد للجماعات والهيئات ، فالعادات شخصية
والتقاليد جماعية

ويغلب على الظن أن الدين وضعوا العنوان تحاموا
كلمة التقاليد عامدين لسبب طارئ لا يخفى على اللبيب
ولكن نحن لا نرى بأساً من الحرص على كلمة
(تقاليد) لأنها في العُرف الحاضر تنفرد بمدلول خاص ،
وسيقول الناس (تقاليد جامعية) و (تقاليد دستورية)
وإن تحاموها من فرضوا هذا العنوان .

والعادات تميز الأمم بعضها من بعض ، وهي من أجل ذلك تُعدُّ سِمَةً شخصية ، والذمات الشخصية من أظهر الدلائل على حيوية الشعوب

ولنداعب الموضوع قليلا فنذكر أن لكل أمة أذواقا في الطعام والشراب ، ففي مدينة باريس مثلا يرى المتطلع مطعماً تركياً ، ومطعماً نمسوياً ، ومطعماً صينياً ، ولكنه لن يجد مطعماً مصرياً ، لأن المصريين ليس لهم مذاهب في الطعام والشراب ، وأكاد أجزم بأن مصر لا تنفرد في أطعمتها بغير البصارة والفول المدمس والفطائر فطائر المواقد والأفران

ويحار الشاب المصري حين يفكر في إنشاء مطعم بمدينة أوربية ، لأن مطعماً اندمج في المطعم التركي منذ أجيال ، ولم تبق لنا خصائص ، حتى في أواني الطعام

والشراب ، ولنا في ذلك عذر مقبول ، فإن موقع مصر
الجغرافي جعلها ملتقى الوافدين من الشرق والغرب ، وفرض
عليها الأخذ من كل مدينة بنصيب

وإنما خصصت هذا الجانب بهذه الفقرة لأدل
القارئ على قيمة الخصائص الذاتية ، ولأستطيع التحدث
عما تعود الناس في هذه البلاد

وما قلته عن الدين أقوله عن العادات ، فالعادات
لا تكون من مقومات الاستقلال إلا إذا كانت صوالح ،
أما العادات السيئة فهي من أسباب الانحلال

والمهم في العادات الصوالح أن تصبح قوانين ، وأن لا
يخرج عليها إلا المفسدون ، ومتى تأصلت العادات الصوالح
وأصبحت رعايتها قانوناً قومياً شعر الناس بقوة في
حيويتهم الذاتية ، وأصبحوا بفضلها كالبنيان المرصوص

يشد بعضه بعضاً ، وكان حرصهم عليها من مقومات
الاستقلال

كان من عادات المصريين أن يبدأ بعضهم بعضاً بالتحية
على الطريقة الإسلامية

أما اليوم فقد انقرض هذا التقليد الحميد ، وأصبح
المؤمن لا يحیی المؤمن إلا إذا سبق التعارف ، وتلك عادة
نقلناها عن الأوربيين ، وحملنا وزرها الثقيل
وأنا أوصي بالرجعة الى ذلك التقليد الجميل ، لأن له
مزايا في تقريب القلوب بعضها من بعض ، ولأنه يشعر
بالاخوة الروحية والوطنية ، ويخلق للرجل ألوفاً من
الاخوان

أنت في هذا الزمن لا تواسي غير من تعرف ، فلو
رأيت مأتماً في طريقك لتحاميت الذهاب اليه ، إلا أن
يكون أهله من المعارف والأصدقاء

ولم يكن الحال كذلك في العصر الخالي ، فقد كان
من الواجب على الرجل أن يمشى في كل جنازة ، وأن
يواسي كل محزون ، وأن لا يخص بیره أصدقاءه وعارفیه ،
وكان من عادات الناس أن يصافحوا كل من يلتقون في
أيام الأعياد ، وأن يتبادلوا التهاني وإن التقوا بلا معرفة
على ظهر الطريق

ولست في حاجة الى توكيد القول بقيمة هذا التقليد
في ربط الأواصر القومية ، فهو أوضح من أن يحتاج الى
بيان .

وتظهر قيمة ذلك التقليد الحميد إذا تذكرنا تفاهة
ما صرنا اليه في تحيات الأعياد ، فعهدى بالمصرى الحديث
يركب سيارة ويطوف بأحياء المدينة فيترك لكل صديق
بطاقة ثم ينصرف من دون أن يرى أحداً ، ونسى الناس

قيمة المصافحة والتقاء الأعين والقلوب

قد تعتذرون بأن الشواغل كثرت وصار الوقت
أضيّق ، ولكن ما رأيكم في أننا غلّوْنا في ذلك غُلُوًّا صار
بنا الى السخف ، والمياذ بالله من قلة الذوق !

ألا تعرفون أن ترك البطاقة عند البواب في أيام
الأعياد صار أقوَمَ من التحية بالتليفون ؟

ألا تذكرون أن التحيات الموسمية لم يَمُدْ لها قيمة إلا
في حساب مصلحة البريد ؟

ألا تذكرون أن المجاملات الواجبة صارت في صميمها
أعمالاً آلية لا تغني ولا تفيد ؟

وما قيمة هذه المتاعب في وصل القلوب ؟

ما قيمة البطاقة الصّماء التي تُمزَّقُ بعد نقل العنوان ؟

ما قيمة الأعياد إن لم نَتَنَسَّم بها أرواح الأُنس بتجديد

المصّلات ؟

لقد كان الناس يهتمون بالعيد فينظمون القصائد ،
ويحتررون الرسائل ، حين يعزّ عليهم التلاقي ، أما اليوم
فقد اكتفينا بالإشارات الدبلوماسية التي نقلناها عن أهل
لندن وباريس ، وفاتنا أن لكل بلد تقاليد ، وأن ما يحسن
هنا قد يفسد هناك

— ٣٥ —

وكان من عاداتنا أن تقيم السهرات في البيوت ، أما
اليوم فقد انتقل السامر إلى القهوة
وليتكم تعرفون أيّ أنس فقدنا منذ حرّ منا المنازل
بَهْجَةِ الأسمار والأحاديث ؟
ليتكم تعرفون خطر ما نعانى من التبذل بالجلوس في
المشارب والقهوات ؟
ليتكم تعرفون كيف خَفَّت موازين الناس منذ
نضروا من هيبة العَرِين ؟

لقد كانت ليالينا كلها مواسم تشبه ليالى رمضان ،
فصرنا لا نتلاقى إلا فى أندية تثقلها الكلفة ، ويُعوزها
الأنس ، وينقصها الصفاء

كانت بيوتنا متديات روحية يَعْرِفُ بها أطفالنا مَنْ
نَأْلَفُ وَمَنْ نَحِبُ ، فأصبحت مُقْفَرَةٌ موحشة ، وأصبح
الصديق لا يلتقى الصديق إلا سأل : أين تسهر وكيف
تراك ؟

والويل كل الويل لمن يحدث أبناء الزمان بأنه لا يسهر
إلا فى البيت وأنه يكره التبذل فى المشارب والقهوات
وازنوا بين الحالين ، وانظروا أى المذهبين أفضل
فى بناء الاستقلال

والحرص على التقاليد يمدُّ باباً من الحرص على التراث
القومى ، لأن التقاليد الصوالح لم تكن إلا ثمرات لجهود

الألوف من المصلحين في مختلف الأجيال ، وما نراعيه من
الآداب في غدواتنا وروحاتنا ، وأفراحنا وأحزاننا ، ليس
إلا دروساً تعب في نشرها الأسلاف ، والعاقِل يحرص
دائماً على الأساس السليم الذي تركه الأجداد ويبنى عليه في
اطمئنان ، ولا يفكر في زعزعة التقاليد إلا مَنْ يجهل
ما سيحتاج إليه من الجهد في تعويض الأدب المفقود

فرعاية التقاليد تنفع من وجهين :

تنفع لأنها سنادٌ حيويٌّ في صيانة المجتمع
وتنفع لأنها توفر علينا جهوداً كثيرة حين نفكر
في تعويضها بأداب جديدة

وليتذكر القارئ دائماً أنني أغنى التقاليد الصوالح ،
أما التقاليد الفواسد فحربها من أهم ما يُعنى به المصلحون

ولا ينبغي أن ننسى الإشارة إلى مقام مصر الحديثة

في عالم التقاليد ، فهي اليوم تعاني أزمة لم تعرفها من قبل ،
لأن مصر ليس فيها جمهور واحد ، وإنما هي جماهير كثيرة
ينظر بعضها إلى بعض نظرات مختلفة لا تخلو من قلق
وامتعاض

واضطراع التقاليد في مصر يضيق على أهلها كثيراً
من الجهد والوقت ، وأكاد أجزم بأن في كل بيت جيلين
يقتتلان ، فالشباب الذي يشاهد الأشرطة السينمائية ويرى
فيها ما يرى من تقاليد أهل النرب في حياة الاجتماع ،
هذا الشاب لا يتأقن له الانسجام مع أهله وذويه في أكثر
الأحيان

ولا يمكن الفض من قيمة هذه النظرة ، ولا ادعاء
أنها خيال كاتب يتوهم ما لا يكون ، فقد أنفقنا من الورق
والمداد ما يقدر بالألوف من الجنيهات في سبيل الجدل حول
السفور والحجاب ، وقضينا سنين نختصم حول ما يقدم

إلى البنات من العلوم . وسنقضى أعواماً كثيرة في نضال
إلى أن نتفق على ما يجب مراعاته من محمود التقاليد
ومماذ العقل أن أنتظر أن تخلو الدنيا من الشغب
حول المبادئ والآراء ، ولكن لا مفر من التنبية إلى
أننا جاوزنا حد المعقول من الخلاف

على أنه لم يكن بدء من وقوع ما وقع ، فقد أرسلنا إلى
أوروبا بعثات علمية ، واضطربنا اضطراباً إلى نقد ما كنا
عليه من شتى التقاليد

وأنا أطلب المستحيل حين أوصي بفض هذا الخلاف ،
فهو خلاف يوجبه ظرف الزمان والمكان ، ولن تستريح
مصر إلا يوم تنحاز انحيازاً تاماً إلى إحدى المدينتين :
الشرقية أو الغربية . وأعتقد أن هذا أمل عزيز المنال ، ففي
مصر قوتان : قوة الجامعة المصرية وقوة الأزهر الشريف
والجامعة المصرية لن تسكت أبداً عن الدعوة إلى المدنية

الغربية ، لأنها أنشئت لذلك ، ولأن فيها قُوى أدبية
من الأساتذة الأجانب ، وهم ينقلون إليها تقاليد الغرب بلا
انقطاع . ويزيد في خطر الجامعة المصرية أنها أمنية قومية
وأن مصر تحتاج بالفعل إلى مدد من الحيوية الغربية

ويزيد في هذا الخطر تشوفُ الشبان إلى أدب أهل
الغرب ، وشوقهم إلى الجرى في ميادين جوت ويرون
ولامرتين ، وقد جرّوا في ذلك أشواطاً يعرفها كل من
يتامس أخبارهم في حياة المجتمع ، وينظر ما درجوا عليه في
مذاهب الفكر والمعاش

والأزهر لن يسكت أبداً عن الدعوة إلى المدنية
الشرقية ، ولن يكفَّ أهله عن التذكير بمجد الأسلاف .
ويزيد في خطر الأزهر قُربُ أهله من قلوب
ال جماهير الشعبية ، وقدرته على بث الحبائل والأشراك
للمدنية الغربية

وقد ظن ناس أن الأزهر انهزم وأن مدينة الغرب
لن تتركه يعيش ، ثم تبينوا بعد لأي أنهم كانوا واهمين ،
وأن الأزهر نسج شبكة من الوعاظ سيطر بها على الناس
في أرجاء البلاد

إذن لن نصل إلى وحدة التقاليد ما دام في مصر
جامعتان لا تلتقيان ، وكيف تلتقيان وقد فصل بينهما
النيل : فقامت إحداهما على الضفة الشرقية ، وقامت
أخرها على الضفة الغربية ، واختلاف المواطن يؤذن
باختلاف الأرواح !

لا تحسبوني أمزح ، فأنا أوقن بأن هاتين الجامعتين
ستعيشان متعاديتين ، وستظلان من أسباب الفرقة في
العادات والتقاليد ، وسيظل الأزهر يشعر بالغربة حين
يدخل الجامعة المصرية ، والجامع يشعر بالغربة حين
يزور الأزهر الشريف

فما الذي نصنع لصيانة الاستقلال من زوابع هذا

الخلاف ؟

أعتقد أن خير الوسائل لذلك هي الدعوة إلى سعة
الصدر ومرونة العقل، ومن الممكن أن تروض الجيل الجديد
على فضيلة التسامح، ونزويه على فهم الواقع، والاطمئنان إلى
أن الله لم يخلق الناس أمة واحدة ، وإنما لوّن فيهم وصنّف
لحكمة يدركها العاقلون

يجب على أولى الرأي أن يحسموا الخلاف بين هذين
الجيلين اللّذين يعيشان في بلد واحد، ويصبغان العادات
والتقاليد صبغات مختلفات الألوان ، ويخلقان الشغب
والقلق في كثير من الطبقات ، ويردّان الأمة إلى جيشين
يصطرحان

وكل خطوة في هذا السبيل تصون بناء الاستقلال

من معاول الهادمين

تذكروا هذا ، أيها المصلحون ، واعلموا أن لا نجاة
لهذا البلد إلا بنحو المصيبة التي تشب نارها من حين الى
حين بسبب اختلاف التقاليد

وأنا مع هذا أعترف بأن اختلاف الناس في العادات
يخلق بينهم ضرباً من المباراة في الحياة العقلية والخلقية
ويحضر كل فريق على السبق ، ويسوقه سوقاً إلى ميادين
النضال

هذا حق

ولكن احذروا خطر الفرقة والشقاق

إن مهمة المصلح في هذا العصر هي التوفيق بين
هاتين الطائفتين ، ولعل التوفيق المنشود يمزج بين ما تنافر
من التقاليد ، فيصل بنا إلى تقاليد جديدة تجمع بين حدة
الغرب ورفق الشرق ، ويومئذ نشعر بأننا بنينا صرحاً من

جيد العادات نصون به الاستقلال

ومن المؤكد أننا نخطونا في هذا السبيل بعض
الخطوات ، فعندنا أساتذة يدرّسون في الأزهر وفي
الجامعة المصرية ، وهؤلاء الأساتذة يوفقون بين العقليتين
من حيث يشعرون أو لا يشعرون

ومن عجيب المصادفات أن أكثر الذين يؤثرون في
طلبة الجامعة هم في الأصل أزهريون ، وأن الأساتذة الذين
يؤثرون في طلبة الأزهر أكثرهم جامعيون

ومن هنا نعرف أن التوفيق بين العقليتين تسوقه
الظروف بلا عناء ، وأن الأمل في وحدة التقاليد ليس
بعيداً إلى الحد الذي توهمناه منذ لحظات

أقول هذا وأنا أعرف أن الأزهر ينفر نفرة شديدة
من التقاليد الجديدة

ولكن أى «أزهر» ؟ هو الأزهر الذى يتمثله
فضيله الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى الذى
يكره أن يقيم الأزهريون أندية رياضية ، ويأبى عليهم أن
يتبدلوا فى ملابس اللاعبين ، كما صرح فى حديث نشرته
جريدة البلاغ

ولكن الأستاذ الأكبر يعرف جيداً حكم الزمن
فى تطور التقاليد ، ولذلك رأيناه يعلن أنه لا يعارض فى
اشتراك الأزهريين فى الأندية الرياضية ، ما داموا بعيدين
عن حرم الأزهر الشريف

والحق أن الأزهريين يتحرقون شوقاً إلى الاندماج
فى البيئات المدنية ، وسيفضى بهم ذلك الشوق إلى إحدى
اثنتين : الفناء فى تلك البيئات ، أو النفرة منها نفرة أبدية
يعلنون بها حرباً لا صلح بعدها ولا سلام ، وفى التقاليد
عداوات تشبه عداوات الأجناس

وقد اتفق لطلبة الأزهر أن مثاوا رواية مجنون ليلي
منذ شهرين ليتم لهم ما يريدون من التشبه بطلبة الجامعة
المصرية ، ولكنهم وقعوا في خطأ سخيـف حين مثل
أحدهم (ليلي) بلا تخرج ولا حياء

وما أحب أن أستقرى الشواهد على صحة ما أذهب
إليه من سعى الطبقات المختلفة بعضها إلى بعض سعياً
حشيثاً سينتهى بالتلاقى أو الاقتراب

وكل ما أرجوه أن نظفر من هذا كله بمزاج جديد
من التقاليد نصون به الاستقلال ، ونأمن به عدوان الفرقة
وطغيان الشقاق

ولكن كيف يرى فضيلة الأستاذ المراغى أن طلبة
الأزهر يخرجون على الوقار حين يلبسون ملابس

اللاعبين ؟ وكيف يسكت سعادة لطفى السيد باشا عن ذلك فلا يصون طلبة الجامعة من التبذل حين يخلعون ملابسهم ويلبسون أقمصاة الألعاب ؟ ألا ترون فى مذاهب هذين العاهلين شيئاً من التناؤف والتضاد ؟

إن هذه الظاهرة فى اختلاف الآراء ترشدنا إلى مسألة خطيرة فى حياة العادات : هى اختلاف الأزياء ، ولا بد لنا من معركة فاصلة نصير بها إلى زى موحد ، ونقضى بها على أصل الخلاف بين مذاهب التقاليد فى الحياة المصرية

إن أقمصاة الألعاب لا تهتك وقار الأزهرين إلا لأن الناس لم يتمودوا رؤية رجال الدين فى غير العمام والجلب والقفاطين

وليس هناك تعليل معقول غير اختلاف الأزياء ،

ولو صارت الأزياء إلى أنماط موحدة لما كان هناك
ما يوجب الشعور بالوحشة من انضمام الأزهريين إلى
صفوف اللاعبين

وقد سممت أن تركيا لا تبيع رجال الدين أن يلبسوا
الملابس الأفريقية، أو هي لا تبيع الملابس الشرقية لغير
رجال الدين

وهذه فيما أعتقد تقاليد نصرانية، لأن النصرانية
تعترف بهيئة الكهنوت، أما الإسلام فلا يعرف ما يسمى
بالطائفة الدينية، كما بين سعادة الأستاذ لطفى السيد باشا في
مقال نشره في (الجريدة) منذ أكثر من ربع قرن

فما الذى يفرض علينا أن نعتبر الأزياء الشرقية أزياء
دينية؟

وما الذى يوجب أن يظل الأزهريون محبوسين
في ملابس يحاربها التمدن الحديث!

وما الذى يمنع من توحيد الأزياء فى هذه البلاد
ليكون ذلك تمهيداً لتوحيد التقاليد ؟

لقد ظهرت طلائع الثورة على الأزياء الشرقية منذ
عشرين سنة ، فلبس الملابس الأفريقية مشايخ مشهورون
جداً ، أذكر منهم طه حسين وعلى عبد الرازق وأحمد أمين
وأذكر منهم صديقنا الشيخ زكى مبارك الذى لا أتصور
اليوم كيف كان يلبس الجبة والقفطان !

ومنذ عشر سنين قامت ثورة فى دار العلوم حار فى
قهرها رجال المعارف وانتهت باصطناع أساتذة اللغة العربية
الملابس الأفريقية

ومنذ سنتين فكر معامو المدارس الإلزامية فى هجر
الملابس الشرقية ، فقاومهم وزير المعارف الأسبق معالى
الاستاذ حامى عيسى باشا

ومنذ تسع سنين فكر طلبة الجامعة المصرية فى لبس

القبعات فقاومهم سمو الأمير عمر طوسن والمغفور له
سعد باشا زغلول

ومن كل ما سلف نعرف أننا نعاني أزمة من أزمت
التقاليد : هي مسألة الأزياء

فما أنتم صانعون يا رجال العصر الحديث ؟
حدثوني ماذا تصنعون ؟ أتحاربون توحيد الأزياء
فتنهزمون كما انهزمتم يوم ثورة دار العلوم ؟ أم تصطنعون
الرفق فتتركون التطور يأخذ مجراه وتنجون من الاصطدام
بصخرة التمدن الحديث ؟

أحب أن أعرف ما أنتم صانعون ، فان الحياة حركة ،
والويل كل الويل للواقفين !

ما لنا نبعد عن قصد السبيل ؟ نحن نتكلم عن العادات
باعتبارها من مقومات الاستقلال ، فلنعترف أولاً بخطـ

التطور ، ثم لنجزم بأن المنفعة القومية تأبى مقاومة ما ليس
منه بدءاً ، فلم يبق إلا أن نبذل ما نستطيع في رعاية التطور
بحكمة وعقل : فلا نقاومه ولا نشجعه ، ولا ننهي عنه ولا
ندعو اليه ، وإنما نترك الأمة تتقبل وحي العصر في رفق
ولين ، فتأخذ ما يزيد لها حيوية ، وتصدف عما يقل من
قيمتها الذاتية . . . وهل كانت العمام التي يلبسها الأزهريون
عربية ؟ إنها قبطية ، ولكنهم لا يعلمون !

ونحن بهذا الحياد نضمن للأمة سلامة تنفعها في
المعاش فلا نبدد قواها فيما لا يفيد

واسمحوا لي أن أنص بصراحة على أن التمسك بالتقاليد
القديمة من سمات الضعف ، ولا يتغنى بالقديم ويحرص عليه
بلا تعقل غير الضعفاء

فأقبلوا على تقاليد العصر الحاضر بلا خوف ، إلا
أن يكون فيها ما ينافي الأدب الحق والدين الصحيح

ولكن احذروا الوقوع فيما يقع فيه المتطرفون ،
فانكم أضعف من أن تحتملوا ما وقع بالأمم العاتية التي ثارت
ثورة عنيفة على مآثور التقاليد . وهل تحتملون ما احتملت
الأمة الروسية والأمة التركية ؟

والمهم أن تفهموا أن التقاليد لا تتراد لذاتها ، وإنما تتراد
لما فيها من نفع ، فاجعلوا المنفعة القومية رائدكم فيما تأخذون
وما تدعون . والله يهديكم سواء السبيل

أما بعد

فقد آن للقلم أن يستريح بعد هذه الأشواط . وكنت
رأيت أن أشارك في (المباراة الأدبية) لأجرب العدل
في وطني مرة بعد أن جربته ألف مرة ، وأنا لا أستبعد
أن أفوز في المرة الأولى بعد الألف ، فشلى لا ييأس من
العدل في وطنه وإن تغطرس الظلم واستطال

أما الآن - وقد رأيت كيف هداني الله الى رياضة
هذا البحث الجموح - فاني أريدُ القلم الى نعمده مطمئنا بعد أن
رأيت كيف جال بفضل الله جولة الجياد

وحسبي من الفوز أن يعترف سعادة مدير الجامعة
المصرية بأن فِرَاسَتَهُ لم تَخِيبْ في تأميذه القديم :

زكي مبارك